في مفهوم الغروتيسك

د. رشيد وديجى

باحث في النقد الأدبي الكلية المتعددة التخصصات/ الرشيدية/ المغرب

ملخص:-

استعرضنا في هذه الدراسة تطور مفهوم الغروتيسك منذ ظهوره في نهاية القرن الخامس عشر حيث أطلق أول مرة على رسومات تجسد كائنات غريبة نصف إنسانية أو نصف حيوانية ونباتية، قبل أن يقتحم مجال الكتابة الأدبية والفنية في القرن التاسع عشر إذ انحصرت وظيفته الأساسية في رصد الأحداث والسلوكيات والأبعاد النفسية، ليتحول مع الرومانسيين إلى مصطلح يوازي ما هو سخيف وغير طبيعي، وكذا كل ما هو منحرف عن القواعد في الفن، عموما فقد تعددت الآراء حول مفهوم الغروتيسك وتباينت إلا أنها تتفق على عدد من سماته الخاصة جعلت منه وسيلة تقنية تهدف إلى تجديد اللعب الدرامي، وتحقيق ثورة فنية تعكس صورة جديدة عن الإنسان المأسوي، مما حدا بالدارسين إلى البحث عن الغروتيسك في الأعمال الدرامية التي تقوم على اللامنطقي والعجائبي خاصة في المسرح السريالي والعبثي. وتنقسم خطة البحث كما يلى:

1- في مفهوم الغروتيسك

2- الغروتيسك في الأدب و الفن:

أ- الغروتيسك في الأدب الألماني

ب-الغروتيسك في الرومانسية الفرنسية

3- الغروتيسك الحداثي

4- الغروتيسك في المسرح المعاصر

الكلمات المفتاحية: تعايش المكونات المتنافرة ، القبيح والجميل، المشوه واللطيف ، والتراجيدي والكوميدي .

Abstract:-

We reviewed the evolution of the concept Gharwtesc since his appearance at the end of the fifteenth century where he was the first time the drawings embody aliens half human, half animal and vegetable, before breaking into the field of literary writing and art in the nineteenth century as confined its main function in monitoring events and behaviors and psychological dimensions, to turnwith romantics to the term equivalent to what is absurd and unnatural, as well as all that is deviant from the rules in art, generally were several opinions about the concept of Gharwtesc and varied but they agree on the number of its special characteristics made him technical means designed to renew the dramatic play, and the achievement of the revolution artreflect the new image of tragic human, prompting its scholars to Search for Gharwtesc in dramas based on irrational and miraculous, especially in the theater surreal and absurd.

Key word :Coexistence of disparate components, ugly and beautiful, distorted and gentle, tragic and comic.

1-مفهوم الغروتيسك:

يعود أصل لفظ " غروتيسك " إلى الحضارة الرومانية حيث تم اكتشاف بعض الغرف داخل الكهوف الطبيعية أو الصناعية في البنايات الرومانية خلال الحفريات الأثرية التي أجريت في نهاية القرن الخامس عشر، حيث سلطت الأضواء على " رسوم تمثل كائنات نصف إنسانية ونصف حيوانية أو نباتية وقد أطلق على هذه الرسوم تسمية "غروتيسك" أو"غروتيسكا" (من الإيطالية غروتا Grotta). وخلال القرن السادس عشر، شاع مصطلح غروتيسك (Grotesque) المنحدر من هذه الرسوم . ثم استعمل أولا في الفنون التشكيلية للإشارة إلى اللوحات المشوهة المعالم والعجائبية التي تذكرنا بالرسوم البدائية التي أبدعها " جيروم بوش " (J.BOUSH) و "بتريل بروجل " (P.BRUEGEL) أو " جاك كالو" (J.GALLOT) "[1]، وقد أشار " Arthur Clayborough " في كتابه " The Grotesque in English littérature" إلى أن هذا المصطلح كان دلالة

---

[1]-حسن المنيعي : الجسد في المسرح ، مطبعة سندي ، مكناس ، 1996 ، ط1، ص 105

عند الإغريق القدامى بمعنى" يخفي (kpvrtelv) أو سرداب ومدفن تحت الأرض (kpvrtr) أما كلمة " غروتيسك" (Grotesque) أو (Grote) فقد ظهرت في اللغة الفرنسية عند بداية 1523 ، وبقيت على هذا الشكل من الكتابة حتى القرن السابع عشر مع " موليير" (Molière) ومعاصريه لتتحول بعد ذلك إلى غروتيسك" (Grotesque) الذي أصبح سائدا في وقتنا الحاضر في جميع الموسوعات والمعاجم الغربية "[2]. ففي إيطاليا ، سنة 1502 طلب الكاردينال " Todeschimi Piccolomini " من الفنان التشكيلي "بنتوريشيو" (Pinturicchio) أن يقوم بتزيين وزخرفة سقف قبة المكتبة داخل كاتوديرائية سينا(The cathédral of Siena)بأسلوب فن " الغروتيسك" ، وقبله كان الفنان" لوكا سينيوريل" (Luca Signoreill) زخرف كاتدرائية" أورفييتو" (Orviet) مابين 1499–1502 بأسلوب متطرف وغلو في استعمال فن " الغروتيسك" ، وهكذا أضحى هذا النوع من فن الزخرفة خلال القرن السادس عشر شائعا في الصور الزيتية الجدارية ، وفي فن العمارة ، والنقش، وكذا في تزيين أغلفة الكتب . وقد كان رفض النظام الطبيعي والنسق المألوف للأشكال من أهم الخصائص الجمالية التي ميزت الغروتيسك آنذاك ، بحيث يتم انشطارها ليعاد توزيعها بصيغ غريبة ترضي ذوق الفنان . في القرن السابع عشر غدا لهذا المصطلح وجود متميز وشائع في الأدب الفرنسي ، ولحقت به أوصاف كثيرة ومتباينة منها : سخيف ، ومضحك، وغريب، وعجيب ، وشاذ، ومتطرف ، ونزوي ، وخيالي ، ووهمي ، وهي مصطلحات أو أوصاف ما فتئ المجتمع الفرنسي يصف الأشخاص بها في واقعهم اليومي : في ملبسهم ، ورقصهم وطريقة تعاملهم، أما في الأدب الانجليزي فلم يعثر على هذه الأوصاف إلا بظهور الديوان الشعري " الفردوس المفقود " لميلتون (Milton) . وبعد ذلك وظف هذا المصطلح للتعبير عن الاستنكار والاستهجان بواقع الكنيسة التي تدعي الحقيقة المطلقة . ومع بداية القرن الثامن عشر تطور مفهوم " الغروتيسك " ليدل على مظاهر منافية للعقل حيث ارتبط بحكم دلالته الأصلية (بالتجسيد) " لكل أنواع التشويه الجسماني مثل: الكائنات الحيوانية، و الأشكال التي تتمفصل بين حدود ما هو عضو، ولا عضوي، وشذوذات التشويه الجسماني مثل: الأقزام، والعمالقة، والحدبات ، الخ... " [3].

---

[2]-لطيفة بلخير: الجسد الغروتسكي والكتابة الإخراجية (لكع بن لكع نموذجا)، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب ، ظهر المهراز ، فاس ، 2004 ، ص 43 .

3-حسن المنيعي : الجسد في المسرح ، سندي مكناس ، 1996 ، ص : 105 – 106 .

وخلال القرن التاسع عشر أصبح مفهوم الغروتيسك شائعا بين الشعراء والكتاب أمثال: " ماكولاي " (Macauly) 1849 ، " وداي ل " (R.W.Dale) 1870 ، و" فولتير" (Voltaire) 1872 ، متنقلا في التزيين والزخرفة الجدارية إلى نصف الأحداث، والوقائع، والانفعالات في القصة والرواية و الشعر . ويتسع هذا المفهوم في الأدب ليحتوي أبعاد جديدة مع تنامي التيار الجديد الذي يبتعد عن الواقعي، والنمطي، والرافض للأشكال التقليدية، والكنائسية المقيدة، ورد الاعتبار إلى الإنسان الراغب في ارتياد عالم اللامعقول، ومن تطوراته أن بدأ يستعمل لوصف الشكل الخارجي للأشخاص والأشياء : الوجه ، الهيئة ، الملابس ، الطريقة في المشي، والأكل، والشرب ... الخ . هذا النوع من التعبير هو ما لجأ اليه مجموعة من الفنانين الساخرين وعلى رأسهم " جاك كالوا " (Jacques Callo) وديدرو (Diderot) للنجاة من غضب دعاة التقليد الرافضين كل خروج عن المألوف. وهكذا ظهرت مجموعة من القصص والروايات للأمريكي " إدغار الان بو " (Edgar Allan Poe) الذي سلك أسلوب كل ما هو مناف ومغاير للطبيعة . فقد استعمل مصطلح غروتيسك كأسلوب فني روائي وصفي قائم بذاته في مجموعة القصصية " حكايات الغروتيسك والأرابيسك " 1840 (Histoire du Grotesque et de l' Arabesque) بفعل هذا التطور، إذن ، تحول مفعول الغروتيسك من الرسم والنحت إلى الكتابة الروائية، و المسرحية برموز ودلالات وشعارات لا يدركها إلا من عايش تجلياته مع رواد الأدب في القرن التاسع عشر ، حيث حقق للروائي والفنان الخوض في عالم مجهول ، ومرعب وسخيف في آن واحد ، عالم وهمي لا منطق فيه ولا حجة ولا برهان ، يسوده الخيال والفوضى والهلوسة . وهي الجماليات الأدبية البديلة من أجل التأثير في الواقع وتغييره والإجهاز على القوانين الاجتماعية الكابحة للحرية و الخيال. وفي القرن العشرين اقتحم الغروتيسك كل ميادين المعرفة والحياة ، إذ نجده في كل الأجناس الأدبية " في الشعر السوريالي مثلا ، وعلى الخصوص في المسرح (برشيت –يونسكو – بيكيت) "[4].هذين الأخيرين غدا إبداعهما عبارة عن دراما خالصة، ومسرح ضد الموضوعاتية، وضد الإيديولوجيا ، وضد الواقعية الاشتراكية، وضد الفلسفي، والسيكولوجي، والبورجوازي، إنه المسرح الحر الجديد الذي أصبحت فيه جميع الكليشيهات الإيديولوجية حيوانية، ومضحكة وكاريكاتورية. أما في الرواية فقد

---

[4]- المرجع نفسه، ص : 107 .

حضـــــي الغروســـــتيك بمكانـــــة خاصـــــة فـــــي أعمـــــال kafka "كافـــــا " . ويعـــد (فتولـــدغومبروفتس) "witlod Gawbrowicz) " أكبـــر مجســـد للغروتيســـك فـــي هـــذا القـــرن ، لأننـــا نلاحظـــه فـــي ســـائر انتاجاتـــه، بينمـــا لا يعـــدو لـــدى الكتـــاب الآخـــرين ســـوى نســـق عرضـــي . إضـــافة إلـــى ذلـــك يـــرتبط مفعـــول الغروتيســـك لديـــه بأوصـــاف الجسد أكثر من غيره ". [5]

2- **الغروتيسك في الأدب والفن :**

أ- **الغروتيسك في الفكر الألماني :**

انطلـــق أغلـــب الدارســـين مـــن الرومانســـية الألمانيـــة فـــي دراســـتهم للغروتيســـك باعتبارهـــا مدرســـة مجســـدة لتصـــور خـــاص فـــي حقـــل الغروتيســـك، يقـــف ضـــد الكلاســـيكية، وضـــد ســـلطة العقـــل، وســـلطة الدولـــة . فـــي عـــام 1788 لـــم يتحـــدد الغروتيســـكي عنـــد " فلوجيـــــل (Flogel)، و"مـــــوخير" (Moser Mustus) ســـــوى فـــــي الغروتيســـك القـــائم علـــى مبـــدأ الضـــحك، ويمكـــن الفـــرق بينهمـــا كناقـــدين فـــي كـــون الأول قـــد بلـــور أبحاثـــه انطلاقـــا مـــن الكوميـــديا ديلارتـــي. بينمـــا كـــان اهتمـــام الثـــاني بالغروتيســـك فـــي العصـــر الوســـيط . وفـــي كتابـــه "نقـــد العقـــل" (Critique of Judgement) ســـنة 1790، يـــربط " كـــانط " ذهنيـــا بـــين الغروتيســـك فـــي نمطـــه وشـــكله خـــلال القـــرن الثـــامن عشـــر وبـــين أصـــناف الفـــن الزخرفـــي، مبينـــا أن الغروتيســـك خيـــال جـــامح وغيـــر موضـــعي ، وأنـــه فـــي إطـــار هـــذا المفهـــوم تتمركـــز ســـيكولوجية الفنـــان الزخرفـــي الـــذي يـــؤمن بـــأن الحريـــة والثـــورة علـــى القواعـــد و الأشـــكال، هـــي مـــا يغـــذي القـــدرة علـــى الابتكـــار وإظهـــار الـــذوق الفنـــي بشـــكل أفضـــل . وبعـــد أن عرفـــت ألمانيـــا صـــراعات واســـعة حـــول مفهـــوم الغروتيســـك، وموقـــع الثقافـــة الســـاحرة فـــي الفكـــر والأدب والنقـــد ، انتشـــرت الثقافـــة الشـــعبية، وارتبطـــت الرومانســـية الألمانيـــة بالســـخرية . مـــع بدايـــة مرحلـــة مـــا قبـــل الرومانســـية وبدايـــة الرومانســـية، عـــرف الغروتيســـك منعطفـــا جديـــدا، إذ اصـــبح انعكاســـا لرؤيـــة العـــالم الـــذاتي و الفرضـــي بعيـــدا عـــن الرؤيـــة الشـــعبية والكرنفاليـــة للقـــرون الوســـطى الســـابقة ، وتجســـد أول تعبيـــر للغروتيســـك الـــذاتي الجديـــد فـــي أعمـــال ســـتيرن (Stern) وحيـــاة وآراء ل " ستراشـــترام شـــاندي " Shandy Stristram، يضـــاف إلـــى ذلـــك مـــا مارســـته أســـماء لامعـــة (حركـــة العاصـــفة والانـــدفاع)، ولينـــز Lenz، وكلينجـــر Klinger، و تيـــك الصـــغير Tiek Le Jeune، وهيبـــل Hippel، وهـــو فمان Hoffman من تأثير جوهري على تطور الغروتيسك الجديد، وعلى مجمل

[5]-نفسه، الصفحة نفسها.

إبداعات الأدب العالمي، فيظهر بذلك على الساحة كل من "جان بول" (Jean – Paul) وشليغل (Shlegel) كمنظرين كبار للرومانسية الألمانية، هذا الأخير ، ينبعث في محاوراته حول الشعر الغرتيسك بالأرابيسك، ويعتبره الشكل الأكثر قدما للفنتازيا الإنسانية . أما "جول بول" (paul – Jeun) في كتاب "مقدمة للجمالية " (l'esthetique à introduction)، فقد كشف بجده عن ملامح الغروتيسك الرومانسي مستعيضا عن مصطلح الغروتسيك بمصطلح " الفكاهة القاتلة " (L'humour meurtrier)، ويبدو تصوره " للدعابة القاتلة " متجاوزا إطار الأدب والفن، لأنه أدرج في هذا المجال مختلف أشكال الطقوس، والعروض الساخرة للعصر الوسيط " عيد الحمقى " (La fête des fous)، وعيد الحمار (La fête de l'âne) مستلهما أعمال كتاب عصر النهضة أمثال:" رابليه"، و " شكسبير" المعروف بسخرنة العالم، وبهزلياته السوداوية، وقدرته في كثير من الأحيان على " إدخال العنصر المأساوي في ملاهيه، والعنصر الملهاوي في مآسيه" .[6] وإذا كان " فريدريك شليجل " وجان بول" قد وسما السخرية بطابع إيجابي كما تجسد في الأرابيسك والدعابة القاتلة، فإن "هيجل" بوصفه أول ناقد للرومانسية، قد اعتبر المبدأ التدميري للسخرية غير لائق بوظيفتها ، فهيجل حسب" باختين" يميز بين السخرية التي يمثلها التدميري بالسخرية غير لائق بوظيفتها، فهيجل حسب " باختين" يميز بين السخرية التي يمثلها " شليجل" وبين الهزلي المدمر للأشياء، التي ليست قيمة في ذاتها معتقدا أن وظيفة الهزء والضحك كامنة في المقام الأول في تقويض المظاهر المتنافرة والنزوات الشاذة ، وبالتالي يغدو " هيجل " جاهلا بالدور المنظم لمبدأ الهزء والضحك داخل الغروتيسك ، لهذا اعتبره مسألة منفصلة عن الضحك الهزلي، عكس ما ذهب إليه "فيشر" الذي يقر بأن المضحك والساخر هو الطاقة المحركة للغروتيسك .

ب– **الغروتيسك في الرومانسية الفرنسية :**

تعتبر كل من النظرة الرومانسية الألمانية، ومخلفات الهجرة، وما حملته الثورة الصناعية والملحمية النابليونية من تجديد على المستوى المجتمعي، والفكري، والجمالي بمثابة مرجعيات، ومنابع استمدت منها الرومانسية الفرنسية أصولها

[6]- ج . ل. ستيان : الملهاة السوداء ، تطور المأساة الملهاوية الحديثة ، ترجمة منير صلاحي الأصبحي، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1976 ، ص : 28 .

الإبداعيـــة و النقديـــة. لقـــد جـــاوزت الرومانســـية الفرنســـية نظيرتهـــا الألمانيـــة نحـــو آفـــاق

أرحـــب، إذ نجـــد " جـــان جـــاك روســـو" (J.Rosseau J.)، وشـــاتوبريان Chateaubriand، و ســـانت بيـــر Saint Pierre قـــد دعـــوا إلـــى تمجيـــد الطبيعـــة، وتقديســـها والارتكـــاز عليهـــا فـــي التخيـــل الأدبـــي، فلجـــأت بعـــد ذلـــك الرومانســـية الفرنســـية إلـــى إقحـــام عنصـــر الغروتيســـك فـــي الممارســـة الأدبيـــة، إذ أثـــار " فيكتـــور هيغـــو"Victor Hugo فـــي مقدمـــة " كرامويـــل " Cromwell، وأثـــار كـــذلك " ويليـــام شكســـبير" مشـــكلة الغروتيســـك بشـــكل بـــارز ومتميـــز، مـــدافعا عـــن " فلســـفة القـــبح " التـــي أضـــحت تشـــكل موضـــوعا أساســـيا للإبـــداع الأدبـــي . وفـــي إطـــار تضـــارب آراء فلاســـفة الجمـــال، ومختلـــف المـــدارس الأدبيـــة والنقديـــة حـــول أثـــاره مفهومـــا" الجميـــل " و " القبـــيح " ، يميـــز " فيكتـــور هيغـــو " فـــي مقدمـــة " كروموميـــل" بـــين الأدب الكلاســـيكي والأدب الرومـــاني مبينـــا تهميـــش العبقريـــة الكلاســـيكية للمكـــون الغروتيســـكي فـــي الإبـــداع ، وعـــدم توحيـــدها بـــين الجميـــل والقبـــيح ، وبـــين الوضـــيع والســـامي ، وبـــين الكوميـــدي والتراجيـــدي . وعلـــى هـــذا الأســـاس عمـــل" هيغـــو" علـــى " تجســـيد الغروتيســـك فـــي مختلـــف الصـــور الغريبـــة، والأشـــكال الخرافيـــة: " المـــرأة المجنحـــة الطـــائرة "Harpie ، والعملاقـــة صـــاحب العـــين الواحـــدة Cyclope، والافعـــوان ذي الـــرؤوس التســـعةHydre، وآلهـــة المـــوج Tritons، وجنيـــات الجحـــيم والبحـــر، وغيرهـــا مـــن الصـــور العجائبيـــة "[7]. ومـــن هنـــا يظهـــر كيـــف تعتنـــي الرومانســـية الفرنســـية بالعناصـــر الغروتيســـكية مازجـــة بـــين الأشـــكال الســـاخرة والأشـــكال الجـــادة، كمـــا وردت فـــي أعمـــال شكســـبير وســـرفانتس ودانتـــي ورابليـــه ... وغيـــرهم مـــن العبـــاقرة العظـــام الـــذين تميـــزت إبـــداعاتهم بـــالغو والغرابـــة وإثـــارة الصـــور المظلمـــة والأشـــياء المشـــوهة . إن الغروتيســـك، إذن ، عنصـــر مـــن عناصـــر الجماليـــات الســـامية والرفيعـــة فـــي الـــدراما وهـــو لـــيس تحســـينيا أو لطيفـــة مـــن اللطـــائف ، وإنمـــا هـــو ضـــرورة مـــن ضـــرورات الفـــن .إن الأصـــيل فـــي أطروحـــة "هيغـــو" هـــو المـــزج بـــين القبـــيح والمضـــحك، غيـــر أن القبـــيح لـــيس غروتيســـكيا فـــي ذاتـــه، لأنـــه لا يصـــبح كـــذلك إلا مشـــوها عـــن طريـــق الكاريكـــاتور، وإذا كـــان " الغروتيســـك الوســـيطي " قـــد اســـتطاع أن يولـــد ضـــحكا ملائمـــا للثقافـــة الملائمـــة الســـائدة

7- لطيفة بلخير: الجسد الغروتيسكي والكتابة الاخراجية ، مرجع سابق، ص53 .

محررا الجسد من المخظورات التي تثقل كاهله ، فإن الغروتيسك الرومانسي ذي النفحة التراجيكوميدية يثير ضحكا سارا لا ضحكا خفيفا .

وإذا كانت الدراما الكلاسيكية ترتكز على مبدأ الفصل بين الأنواع ، فقد لجأت الدراما الرومانسية إلى المزج الفني بين التراجيدي والكوميدي تجدير الغروتسكي في الأدب الحديث عن طريق اعتماد فلسفة القبح ومبدأ الهزء إثارة للتناقض، وتكسيرا للمعايير السائدة.

3 – الغروتيسك الحداثي : (Le Crotesque moderniste)

يرجع مصدر مفهوم السخرية لدى " لوكاش " إلى رفض واقع القيم الرديئة متأثرا في ذلك بالرومانسية الألمانية، كما تجلت عند " شليجل " وجان بول"، مخالفا بذلك أستاذه "هيجل" الذي انطبعت السخرية عنده بطابع الاعتدال، ومن ثمة، جاءت نماذجه الغروتيسكية مجسدة لعناصره الفكاهة، والضحك، والغرابة كما عالجها " دانتي"، و" وجوته"، و سرفانتس"، و"ستيرن"، و"جان بول" .

وبظهور المدرسة الشكلانية الروسية، توجه البحث نحو أساليب الفكاهة الشيء الذي أفضى " بإنخباوم" ، و" توماشفسكي "وشكلوفسكي "، إلى إثارة مسألة تحول الأساليب غير الأدبية إلى جوهر الممارسة الأدبية، حيث وضحوا دور السخرية في البناء السردي، وتطور الشكل الأدبي، والتقنيات الفكاهية المعتمدة فيه.

في إطار هذه العناية بالفكاهة والسخرية، انطلقت أبحاث " ميخائيل باختين" في مجال الثقافة الساخرة متشبعا بتصورات الجمالية الرومانسية (جوته، و شليغل ، و جان بول، و ستيرن) مدشنا نظريته النقدية بشعرية دستويفسكي التي تكشف عن الوجود التاريخي للأشكال الضاحكة ، وهو تفسير موازي للمعالجة الماركسية للملكية ووسائل الإنتاج، إذ يرى " باختين" أنه بانعدام الطبقية انمحت الفوارق القيمة بين الهزلي والجاد .

وفي منأى عن لوكاش، والشكلانيين الروس، و باختين " سيعرف الغروتيسك في بداية القرن العشرين نقلة قوية مع الغروتيسك الواقعي Le grotesque réaliste (توماس مان، برتولد برشت، بابلو نيرودا ...) الذي يستوحي التقاليد الواقعية الساخرة ويستلهم الثقافة الشعبية والأشكال الكرنفالية .

لقد عمد مسرح العبث من جهة إلى الأساليب النقدية المرعبة، إلى حد الغروتيسك والكاريكاتور، يقول " أوجين يونسكو (ionesco Eugéne)

في كتابه Note et Contre Note: " تكمن قيمة المسرح في تضخيم الأحداث، وينبغي تضخيمها أكثر مما كانت عليه (...) مع الذهاب بعيدا إلى أبعد حد في الغروتيسك، وفي الكاريكاتور، وإلى أبعد من السخرية الشاحبة (...) نعم للدعابة ولكن بالأساليب التهكمية الهازئة ، الهزء القاسي المفرط، إننا لا نرغب في الكوميديات الدرامية، وإنما في العودة إلى ما يصعب الدفاع عنه كل شيء الى الذروة توجد ينابيع التراجيدي، إذن، نصبوا إلى صناعة مسرح عنيف، هازئ مضحك بشدة ودرامي بعنف" . [8]

إن الإحساس باللاواقعية والبحث عن واقعية جوهرية، هي الفكرة التي أراد " يونسكو" التعبير عنها عبر شخصياته التي لا يمكن أن تكون إلا غروتيسكية، فقد أصبح الغروتيسك في أعمال "يونسكو"، و"بيكيت"، و"فريش" و " دورنمات" و " بريشت" مع تفاوت في الهزء والقتامة آخر محاولة لأخذ الإنسان التراجيكوميدي المعاصر بعين الاعتبار .

ويمكن ان نعتبر عمل الناقد الادبي الألماني" و. كيزر" " W.kayser " المعنون بـ" الغروتيسك في الرسم والأدب " آخر نظرية ترتبط بالخط الحداثي . فالغروتيسك عند " كيزر" شكل من أشكال التعبير عن " ذلك الآخر"، وهو مفهوم فرويدي أكثر منه وجودي ، لأن" ذلك الآخر"هو القوة الغريبة التي تتحكم في الكائن البشري، و العالم كله، ويرى "كيزر" أيضا، أن "ذلك "الآخر" يتحول في عالم الغروتيسك إلى رعب هزلي ، إنه لا يجعل الغروتيسك مرتبطا بالخوف من الموت ولكن بالخوف من الحياة، والفكرة هنا ذات جوهر وجودي يعارض الحياة بالموت، وهو تعارض غريب عن نظام الصور الغروتيسكية حيث لا يعد الموت أبدا نفيا للحياة . ورغم قيمة اجتهاد " كيزر" في نظرية الغروتيسكات الرومانسية والحداثية، فإن عمله حسب " باختين" غير قابل للتطبيق على المرحلة القديمة، والعصر الوسيط ، وعصر النهضة باعتبار هذا الأخير ظل لصيقا بالثقافة الشعبية الساخرة.

4-الغروتيسك في المسرح المعاصر :

في دراسة له موضوع الغروتيسك والدلالة في مسرح "بيكيت" و " دورنمات"، وحسب ما تقدم به" دومنيك إيل" Dominique IehL" في هذا المجال، يشير حسن المنيعي إلى الهدف من هذه الدراسة يتحدد في (الوقوف على

[8]- المرجع نفسه، ص 57-58 .

الغروتيسك في حقل الفن الدرامي) ، باعتباره « أسلوب» محاولا في ذلك البحث عن معناه في المسرح وفي هذا الصدد يكتسي " صمويل بيكيت" S.Becket قيمة نموذجية، ومع ذلك ومن باب الإفادة أن يوضع في مواجهة مع " دورنمات " (F. Durrenmantt) الكاتب الدرامي الذي نظر إلى الغروتيسك، والذي لمس في استعماله شكلا مباشرا للدلالة والبرهان الممكن والوحيد على ذلك فوق خشبة المسرح المعاصر . وإذا كان من طبيعة الغروتيسك أنه يتحرك، وأن وظيفته تختلف حسب الحقب التاريخية، فإن دراسته لم تتم إلا في حالة غيابه، كما أن محاولة تحديده تمت في ما يميزه عن المأساوي / الهزلي، والعبث وفن التصنع، وهذا ما فعله الناقد الألماني" أرلوند هيدزيك".Heidsiek A الذي أقدم مؤخرا على مراجعة مفهوم الغروتيسك بتطبيقه على مراحل مختلفة من مسرح "بريشت" محاولا بذلك التوفيق بين مسرح اجتماعي ومسرح غروتيسكي .

وإذا كان "كيرزر" يرى في انبثاق الغريب "L'étranger" السمة المهيمنة للغروتيسك فإنه من الأكيد، في مجال الفن الدرامي، أولا لقاء وتعاون بين المأساوي والهزلي مع حضور بعض سمات العجائبي، إلا أن الأمر لا ينحصر في مزيج يمكن اكتشافه بسهولة .

فإذا أردنا أن نقف على بنية المسرح الغروتيسكي، – فإن من الأفضل – كما لاحظ ذلك " يان كوت Kott .Y – أن ننطلق من المأسوي، لأن" الرؤية المأسوية والرؤية الغروتيسكي المعاصر هو التراجيديا القديمة التي تكتب من جديد وبطريقة أخرى" [9].

إن الغروتيسك بهذا هو الطريقة الوحيدة التي تخول لنا اليوم أن نكتب بطريقة مأسوية، واللغة القادرة على أن تجعل المأساوي المعاصر محسوسا .

إنه لمن الصعب أن نعد الغروتيسك ابتكارا للمسرح المعاصر . لماذا ؟ لأنه قبل ذلك، نجد أن الأسلوب الأول للغروتيسك يوجد في البداية الغريب والحياة كما يوجد العجائبي والحركة ، إضافة إلى ذلك ، فإنه يتزع في الوقت معا إلى الهزلي Le Brulesque الذي يعد لغة فائضة تلائم تنافرات الحياة ، و إلى مركبات العجائبي التي نجدها في بعض مسرحيات "شيكسبير" الذي قال عنه "بيتربروك "

[9]-نقلا عن حسن المنيعي : المسرح الحديث، (إشراقات و اختيارات)، منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة، سلسلة دراسات الفرجة 6 ، طنجة، ط1، 2009، ص51.

بأنــه اســتطاع " أن يصــوغ أســلوبا متقــدما عــن أي أســلوب آخــر فــي أي مكــان قبلــه

أو بعــده ، أتــاح لــه أن يخلــق –فــي فســحة زمنيــة مضــغوطة جــدا، وباســتخدام واع ورائع لمختلف الوسائل –صورة واقعية للحياة "[10].

فهــذه المســرحيات التــي يمكــن أن نطلــق عليهــا صــفة الغروتيســك، تتحصــر فــي نطــاق يختلــف كثيــرا عــن الغروتيســك المعاصــر. فمــن الأكيــد كمــا عبــر عــن ذلــك كيــزر أن شكســبير" يعلــن قــبلا بكيــت حيــث نجــده يختــزل القــيم الــى عــدم ، ولا يتــرك ســوى العــالم القاســي يحكــم وحــده، و يحــول" مســرح البرهــان " إلــى " مســرح المهــرجين " ، فــي مســرحيته الأولــى " مكتــوب علــى الســبورة " التــي تحكــي عــن مرحلــة مــن تــاريخ مجــددي التعميــد "les anabaptistes" والتــي هــي بنــاء غروتيســكي حــول الفــيض، فــيض مــازال شكســبيريا علــى حــد بعيــد، يجســد "دورنمــات" بوضــوح قــوي الموضــوع الــذي يعــالج ممارســة صــعلوك واعــظ للســلطة عنــدما أصــبح خــلال ســنة ملكــا علــى " مونســتر" munster محققــا فــي ذلــك مشــهدا غروتيســكيا يشــبه مــن حيــث قيمتــه الحركة التي أشرنا إليها سابقا عن الغروستيك الزخرفي والابتكار الشكسبيري .

وينحصــر إبــداع " دورنمــات" هنــا كمرحلــة منفــردة ليصــبح الغروتيســك فيمــا بعــد أكثــر صــلابة وجفــاف بــل أكثــر منهجيــة، لأن مــا يســمى بــالقحط هــو الــذي ســيفرض نفســه لغــة فــي المســرح المعاصــر كلــه، وهــذا مــا أدى بــه إلــى تتفــيح مســرحيته " مكتــوب علــى الســبورة " بعــد عشــرين ســنة مــن كتابتهــا، ليقتــرح بــذلك رؤيــة غروتيســكية جــد بارعــة تعتمد كثيرا اقتراحات "بيكيت".

ويتبــين لنــا مــن خــلال مســرحيتي " زيــارة الســيدة العجــوز " 1955، و " الفيزيــائيون " 1961 بــل وحتــى فــي أغلــب نتاجــات " دورنمــات" أن هــذا الأخيــر يعــرض مــن خلالهــا نمطــين مــن الغروتيســك، " الأول يطبــق علــى " الموقــف" ، والثــاني علــى اللغــة لأنــه أكثــر دقــة .ففــي المســرحية الأولــى علــى ســبيل المثــال يبــدو غروتيســك الموقــف واضــحا، فحينمــا أصــبحت العجــوز غنيــة وقويــة بفضــل زواجهــا، عــادت إلــى المدينــة الصــغيرة– التــي طــردت منهــا بطريقــة مخزنيــة –لتنتقم مــن

[10]-بيتــر بــروك : النقطــة المتحولــة (أربعــون عامــا فــي اكتشــاف المســرح) ، ترجمــة فــاروق عبــد القــادر، عــالم المعرفــة ، المجلــس الــوطني للثقافــة والفنــون و الأدب- الكويــت- ع 154، أكتــوبر 1991، ص 125 .

الرجل الذي تخلى عنها سابقا ، فهذا الحدث ترهين ومحاكاة ساخرة للقدر العتيق الذي عوض بخدعة الإغواء الاقتصادي ، إذ بمجرد ما تمنح العجوز مليارين مقابل حياة، تهدف الحركة الدرامية كلها الى تقويض ما هو إنساني، ويظهر ذلك أيضا من المخصيين اللذين ينتميان إلى حاشية العجوز ، إنهما الشاهدان المزوران اللذان كانا مصدر طردها، لكنها تمكنت من العثور عليهما ومعاقبتهما بتحويل كل واحد منهما إلى إنسان آلي يخدمها، وهذا ما جعل منهما صورة للإنسانية الجديدة التي تقدم مثالا عنها السيدة العجوز .

وفي مسرحية " الفيزيائيين" نقف على نفس البنية حيث تتجلى الخدعة في مصحة الأمراض النفسية التي يختفي فيها علماء الفيزياء، اثنان منهما جاسوسان، والثالث مثالي يسعى إلى إخفاء عمله لينقذ العالم من الدمار، وهنا مرة أخرى، يتعلق الأمر بفعل مأساوي راهني يتجسد عبر وضعية العلم الحديث والعالم الحديث في علاقتهما بالمجتمع، فكل شيء في المسرحية يقوم على الغروتيسك: العلماء، الذي قبعوا فيه ومديرة المصلحة ، وهذا يعني أن مشهد العالم هو مستشفى، وإلهه هو امرأة حمقاء .

وعن غروتيسك " اللغة"، فإن الموضوع الحقيقي لمسرحية "زيارة السيدة العجوز" هو التطويق الذي تمارسه اللغة، فهذا النمط من " الغروتيسك " أشد لذاعة من الآخر، لأن الأمر لم يعد يتعلق هنا بتراجيديا الكذب وسوء النية التي ما يزال يهيمن عليها نوع من الخير والشر، وإنما هي تراجيديا التطويق والاختناق، أي إخفاء غروتيسكيا يتموضع في اتجاهات معاكسة لكن قيم المأسوي . وعكس ذلك، يذهب "دورنمات " في مسرحيته "الفيزيائيين" أبعد من ذلك في توضيحه لغرور اللغة، فالعلماء الثلاثة في الفصل الثاني يتخلصون من قناع الأحمق، إذ بقدر ما يحتفظون به كانت المسرحية تتحول إلى هرجة تكاد تكون مأساوية، فأصبحوا يقبلون هويتهم الحقيقية، وأن باستطاعتهم أن يناقشوا، وأن يتبادلوا وجهات نظرهم مع العمل على توحيد جهودهم إما لتحريرهم أو لإيجاد حل. لكن مهما كان وعيهم ، فإنهم لا يستطيعون ذلك لأن اللغة المأساوية تفترض المواجهة والنقاش والتنوع، ولأن كل شيء مزيف في تبادلاتهم اللغوية. كما أن خطابهم يخلو من كل اقتناع وصلابة . أما عن بيكيت، فإن له استعمالا خاصا جدا للمحاكاة الساخرة داخل الرؤية الغروتيسكية، فهي في الغالب محاكاة للحياة من خلال محاكاة ساخرة للغة التي تتحدد على مستويات مختلفة فأول شيء يقوم به بيكيت " هو اختياره منهجيا لنموذج بسيط وعدواني جدا يكون كاريكاتورا بدئيا أو جناسا يبدو سهلا أو

تلاعبا بألفاظ مبتذلة مثل التي يفيض بها مونولوج " لاكي "(lucky) في مسرحية " في انتظار غودو " إلا أن ما نلمسه أيضا لديه هو رغبته في التركيز على الطابع الطفولي الهائل للخطاب المعاصر، وعلى القيام بتحريفه عبر تشويه يبحث عن الابتذال.

إن انتظار المتسكعين في مسرحية "في انتظار غودو" ليس مجرد محاكاة ساخرة لانتظار النعمة، ولكنه يظل انتظارا حقيقيا ينطوي على غموض محير، الشيء الذي يؤكد على أن المفارقة لدى بيكيت تتحصر في صيانة بعد متسام من خلال رفض لكل التساميات .

إن نتائج "بكيت" ينطوي على فيض من المرجعيات بالصور، تحيلنا على منظومات وفلسفات وذلك بأسلوب ساخر تقريبا، يرافقه هروب الكلمات وضياعها لأن اللغة أصبحت متعذرة الامساك بعد أن فقدت كل تماسكها وخلفيتها، بحيث لم تعد توجد على الاطلاق أية دلالة وراء الكلمات .

تركيب:

إن الغروتيسك جوهر من جواهر التخيل البشري، وضرورات الفن، ولمسة من اللمسات الجماليات للدراما، وذلك لكونه خليطا من المكونات المتنافرة واقعيا، ونسف وتدمير للنظام الطبيعي ، وشذوذ حر للصور و الأشكال، وتعبير عن تعاقب الابتهاج، والامتعاض . وبهذا يرقى الغروتيسك إلى مرتبة الطقس الساخر والضحك القائل، والفرح القائم على الواقع في شموليته، وعلى العالم في كليته .

لقد أصبت النظرة الكلاسيكية الأحادية للجميل متجاوزة نتيجة ظهور " فلسفة القبح " التي أفسحت المجال لتعايش القبيح والجميل، المشوه واللطيف ، والتراجيدي والكوميدي . وبالرغم من تغير مفهوم الغروتيسك من الدلالة على السخافة، و الإضحاك، و الغرابة، والتطرف، والشذوذ ، والنزوية في عصر النهضة إلى وصف الأحداث، والأحوال السيكولوجية للشخوص إبان القرن التاسع عشر إلى الابتعاد عن الواقعي، والنمطي، وإثارة للرعب، والفوضى، والعبث، ومختلف مظاهر الوهم، والخيال، والجنون المنافي للمنطق، والبرهان مع التيار الجديد ، فقد أضحى الغروتيسك بصفة عامة هو النوع الفني المهيمن على العديد من التيارات الأدبية التي تتبنى الحداثة بوصفها المظهر الثقافي المستجيب لمثيرات السلوك الحضاري الراهن.

لم أتطرق في هذا العرض إلى دراسة البعد الغروتيسكي في المسرح العربي ، وهذا لا ينفي حضوره واستخدامه ، فتوفيق الحكيم من خلال رائعته " السلطان

الحـــاثر" ومـــن منطـــق فلســـفته الحياتيـــة التـــي تعتمـــد التـــراث الإنســـاني والعربـــي علـــى الســـواء ، تمثـــل خيـــر نمـــوذج لهـــذا البعـــد يمكـــن تـــأطيره فـــي مـــا يســـمى بـــ " التراجيكوميـــديا" نظـــرا لتعـــايش عنصـــرين فـــي بنيتهمـــا العامـــة : المأســـاوي و السخري .

أيضـــا موضـــوع الجســـد الغروتيســـكي –ســـواء فـــي المســـرح ، أو كمـــا تطـــرق إليـــه غـــومبروفتس فـــي الروايـــة لـــم تســـعفني هـــذه الصـــفحات فـــي تفصـــيله وإدراجـــه، وكلهـــا مواضـــيع ودراســـات اشـــتغل عليهـــا حســـن المنيعـــي فـــي كتاباتـــه وإعداداتـــه، وترجماتـــه القيمة والنادرة .

المراجع :

1. **المنيعي (حسن)**: الجسد في المسرح ، مطبعة سندي ، مكناس، ط1، 1996.
   المسرح الحديث، (إشراقات و اختبارات)، منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة، سلسلة دراسات الفرجة 6 ، طنجة، ط1، 2009.
2. **بـروك (بيتـر)** : النقطـة المتحولـة (أربعـون عامـا فـي اكتشـاف المسـرح) ، ترجمـة فـاروق عبـد القـادر، عـالم المعرفـة ، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون و الأدب- الكويـت- ع 154، أكتـوبر 1991.
3. **بلخير(لطيفة)**: الجسد الغروتيسكي والكتابة الإخراجية (لكع بن لكع نموذجا)، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب ، ظهر المهراز ، فاس ، 2004.
4. **ســتيان (ج . ل)** : الملهـاة السـوداء ، تطـور المأسـاة الملهاويـة الحديثـة ، ترجمـة منيـر صلاحي الأصبحي، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1976 .